

# الفصل الأول

## تقييم الفكر الإسلامى فى مرحلته الأولى

فى جانب الفقه :

١ — ان الفكر الإسلامى فى جانب التفقه يدل على قدرة وبراعة عقلية ، ويدل أيضا على أصالة فى الفهم ورجاحة فى الوزن ، وعلى خطوات نسيحة فى البناء .

ولو لم يصر التفقه الى تعصب ، ولو لم تصل تلك الأصالة فى الفهم الى تقليد جارف — لما وقفت حركة البناء الفقهية ، ولما وقعت بعد هذا الوقوف تلك الانفصالية ، فى حياة المسلم : بين سلوك يأخذ مجراه تحت تأثير ظروف الحياة نفسها ، وبين الإسلام الذى تجددت رواغده بحيث لم تعد تسير مع السلوك جنبا الى جنب ، أو بحيث لم تعد تمنح الانسان المسلم المساعدة فى التوجيه فى سلوكه وفى طبع هذا السلوك بطابع اسلامى .

هذه « الانفصالية » دعت بعض علماء المسلمين الى ان يطلبوا الى المسلمين العودة الى اوضاع الحياة قبل هذه الانفصالية والوقوف عندها ، وبذلك تنقطع صلتهم بقوانين الحياة فى التطور وفى البقاء للأصلح فى ملاعته نفسه مع أحداث الحياة .

وهؤلاء هم الذين يصفون الجديد بأنه « بدعة » . وهذا خلف ، وضد حياة الانسان نفسه .

بينما هذه الانفصالية ذاتها دعت بعض مؤرخى الأجنب للحكم على الفقه الإسلامى بالانفلاس ، أو بالتأزم . وكلاهما دليل على أن امكانياته محدودة ،

وأنها انتهت ، واستنفدت عند حد معين في تاريخ الجماعة الإسلامية ، ولم تستطع بعد هذا الحد المعين الآن أن تقدم المعنوية الضرورية .

هذا وذاك في حين : أن نفرا ثالثا من علماء المسلمين لم ير واحدا من الرايين السابقين ، بل يرى أن هذه « الانفصالية » التي وقعت منشؤها : طغيان التعصب للمذاهب ، وعدم الانفكاك عن التبعية المطلقة . فحال هذا الطغيان دون اتخاذ موقف حر يعود بالإسلام الى مرونته . وبذا يمكن له أن يستوعب الجديد من الأحداث ، ويمكن له أن يستمر كذلك في تقديم المعونة التي كان يقدمها فيما مضى ، يوم أن كان هناك موقف حر أو ما يسمى « بالاجتهاد » .

... وهذا نفر الثالث هو صاحب التفكير الاسلامى في مرحلته الثانية وهى مرحلة اعادة بناء المجتمع من جديد .

\*\*\*

### في جانب التفلسف :

٢ - أما الفكر الاسلامى في جانب التفلسف فيقوم على انه فكر حاك ومردد للفكر الدخيلة ، وبالأخص الاغريقية منها ، دون أن يقدم جديدا ، أو حتى دون أن يهضمه .

وما هذه المعارضة للفكر الاغريقى التي يتزعمها الغزالي الا آية على أن العقلية الاسلامية لم تفهم صنعة العقل الآرى ، ممثلا في التراث الفكرى اليونانى .

وهذا الراى ينادى به بعض علماء الغرب من المستشرقين في نقدهم للفلسفة الاسلامية .

ولكن في واقع الأمر : عدم بناء الفكر الاسلامى جديدا في الفلسفة الاغريقية الالهية ، أى عدم اضافته حلقات الى ما خلفه الاغريق فيها : لا يعود الى وقف العقلية الاسلامية عند حد الحكاية والتقليد دون الأصالة والبناء .

كما لا يرجع لى عدم هضم هذا التراث الفكرى ،

بل يرجع الى انه قد تكشف لهذه العقلية الاسلامية بعد الدراسة ان هناك فجوة بين بعض فكر هذا التراث وبين مبادئ الاسلام .

فالذين احتضنوا هذا الفكر من المسلمين استنفدوا صنعتهم العقلية في التوفيق والملاءمة بين الجانبين ،

والذين رفضوه منهم قصروا تفكيرهم على اظهار نقائصه وبيان بطلانه من وجهة القاييس العقلية في المرتبة الأولى ، ثم من وجهة الاسلام في المرتبة الثانية .

فكتاب : « مقاصد الفلسفة » للغزالي الذي يجعله تمهيدا لكتابه : « تهافت الفلاسفة » .. يوضح في غير لیس : مدى فهم الغزالي للفكر الاغريقي ، ثم مدى نهمه ايضا لعملية التوفيق التي قام بها المسلمون .

فتتناقض الفكر الاغريقي في كثير من آرائه لبعض تعاليم الاسلام ووجهت العقلیات الاسلامية وجهة أخرى ، غير وجهة البناء والاضافة . وهى وجهة التوفيق ، أو النقد .

ولو ان العقلية الاسلامية لا تملك استطاعة التفكير الفاسفى لما كان لها انتاج يؤثر : سواء في عملية التوفيق ، أو في عملية النقد . فكلاهما عمليتان تدلان على العقل الذى يباشرهما عقل فلسفى يستطيع البناء ، ان دعت ظروف الفكر الى البناء .

ويؤيد ذلك : ان العقل الاسلامى نفسه في مجال آخر غير مجال « الميتافيزيقا » والالهيات ، وهو مجال الرياضة والطبيعة — استطاع ان يكون عقلا بنائيا ومنتجا أصيلا .

لانه في هذا المجال الآخر لم يجد الحرج الذى وجدته في المجال الالهى . وهو الحرج الناشئ عن القيمة الذاتية للتعاليم الاسلامية ، التي ادركها وبرهن على صحتها قبل نقل الفكر الدخيل الاغريقي الى اللغة العربية .

فكان من الطبيعى أن يفهم الفكر اندخيل في ضوء تلك القيمة الذاتية

للتعاليم الاسلامية ، وكان من الطبيعي كذلك قبل البناء في الفكر الفلسفي  
الدخيل : ان يوفق ، او ينقد هذا الفكر ، عندما تبدو معارضته لشيء التزمه  
عقلا قبل ذلك ، وهو تعاليم الاسلام .

ويقول WILHELM DILTHEY في كتابه *Gésammelte Schriften*  
( في الجزء الأول صفحة ٢٩٢ — طبع لبيتسج سنة ١٩٣٣ ) :

« وقد استخدم المسلمون المصطلحات الفلسفية اليونانية في علم الكلام ،  
واستخدموا في تنظيمه المنطق القديم وعلم المقولات . وقد تركز محيط  
الأفكار حول التصورات الدينية وجذبت نحوها نتفا من العلم اليوناني  
وأخضعتها لها .

وقد تغير الأمر لما اكتشف العرب — كمركز ثان للعمل العقلي —  
علوم اليونان الطبيعية ، وابتدأوا يبنون حولها دائرة من المعارف الطبيعية .

وقد أثرت حركة ترجمة العلوم الطبيعية الى العربية في الاستمرار في  
بناء العلوم الواقعية التي نشأت في مدرسة الاسكندرية ، وحافظت هذه  
المدرسة على عدم الخلط فيها ، كما كانت ..

والغرب مدين للعرب بدور الوساطة في نقل نظام الأرقام الهندية ،  
وفي توسيع نظام الجبر اليوناني » ( ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ) .

« وبلا شك قد هيأوا الأوامر بتقدمهم الخاص الى نشأة العلم الطبيعي  
الحديث :

فتوسعوا في الكيمياء عما وصلت اليهم من مدرسة الاسكندرية .

وأوجدوا عدة مستحضرات كيمياوية .

كما تقدموا في الرياضة واستخدموها كآلة للتقدير الكمي .

ومايقوله « ديلتاي » هنا يؤكد مآزينا اليه ، من ان : عدم بناء الفكر  
الاسلامي في الجانب الالهى في الفلسفة الاغريقية يرجع الى التباين بينها

وبين تعاليم الاسلام ، وليس الى ضعف العقلية الاسلامية وعدم استطاعتها  
التفلسف .

على أن هناك شيئا آخر وراء البناء أو وراء عدم البناء ، من العقل  
الاسلامى ، فى جانب الفكر الاغريقى ، هو :

أن تفلسف المسلمين فى الجانب الالهى الاغريقى الذى انحصر فى التوفيق  
والملائمة بين آراء الاغريق من جانب وتعاليم الاسلام من جانب آخر ،  
لم يفد الاسلام كدين ، كما لم يترك العقل الانسانى يدرك الفكر الاغريقى  
على حقيقته .

... لم يفد الاسلام كدين ، لأن : معتقدات الدين فى جانب الله سبحانه  
وتعالى ، بشرحها شرحا فلسفيا اغريقيا أو بإمالة الفكر الاغريقى نحوها  
ومحاولة صهر الطرفين فى وحدة واحدة .. عقدت هذه المعتقدات ، وأضحى  
فهمها بعد التعقيد أو بعد تفلسف العقيدة ، وقفنا على طبقة من الناس  
خاصة ، وهى طبقة العقليين الذين دربوا ذهنهم تدريبا خاصا على فهم  
المشاكل الفلسفية الالهية القديمة ومشاكل القرون الوسطى :

ولم تترك هذه الملائمة العقل الانسانى يدرك الفكر الاغريقى على  
حقيقته . لأنه صيغه ، بعد التفلسف القائم على التوفيق ، بصيغة دينية ،  
منحته نوعا من القداسة تحول دون نقده ورؤيته كما هو . كما أضافت  
اليه عناصر دينية أخرى ليس من السهل فصل بعضها عن بعض .

وبذلك بقى هذا الفكر فترة من الزمن يردد على هذا النحو من  
الاثباتك .

\*\*\*

### فى جانب التصوف :

٣ - أما التصوف الاسلامى فقد نال نوعه المتأخر استحسان الغرب من  
جانب ، وسخط المسلمين عليه من جانب آخر .

كان التصوف زهدا . فأصبح ضربا من ضروب الفلسفة . ثم مال الى  
« وحدة » ابراهيمية و « حلول » المسيحية .

وهذا المآل الذى آل اليه هو موضع الاختلاف فى التقدير ، بين الاستحسان والتجريح .

أما استحسان علماء الغرب له لأنه يميل بالاسلام نحو المسيحية . فيبعد الاسلام عن مجال الحياة العامة . ويقصره على الدربة النفسية ومايسمى بالصفاء الروحى للفرد . فوق أنه يقرب الله بفكرة الحلول الى الانسان على نحو تأليه عيسى المسيح وجعله طبيعة مزدوجة ، الهية الباطن ، وانسانية الظاهر .

وهذا ماينشده الغرب ويبتغيه من الدين . اذ الدين فى نظره يعالج نفس الفرد ويضع أمامه المثل الأعلى للاقتراب منه .

هكذا يشرح الدين فى نظر الغرب اقتباسا من وضع المسيحية .

أما المسلمون فيرون أن فكرة الحلول تنقض رسالة الاسلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الحق وصفاته . وهى لكونها تستتبع فكرة « التناسخ » تجعل من الله موجودا منتقلا . وذلك يتناقى مع بعض صفاته تعالى كالبقاء والقيام بالنفس ،

فالمسلمون يرون الصوفية المتأخرة ضربا من تحريف الاسلام الى المسيحية المحرفة ، وهى مسيحية الحلولية .

\*\*\*

### فى السياسة ونظام الحكم :

٤ — أما تفكير المسلمين فيما يتصل بالامامة أو الرياسة فى الجماعة الاسلامية ففضلا عن كونه اتجه الى اتجاهين متقابلين تماما ، مما ينبىء عن أن العاطفة الانسانية كان لها أثر كبير فى تبلور الاتجاهين ، فانه صار :

الى انحراف واضح ، فى اتجاه ،

والى قسوة مرة واضحة فى الاتجاه الآخر .

أما الانحراف فقد صاحب الاتجاه الذى يرى وجوب حصر الامامة فى عائلة خاصة . فقد صار هذا الاتجاه — لا الى القول « بعصمة » الامام فقط مما يجعل الامام فى منزلة الرسول وفوق مستوى الانسان العادى —

بل الى اعتقاد ان روح الله تحل في الامام ، وأن روح الله تنتقل من امام  
اخرى الى امام وجد وانبتق .

وهذا هو منطق : الحلول ، والتناسخ . بل صار الأمر أشد انحرافا  
حيث يجعل الامام الحق المطلق في الرأي الذي يستفتى فيه . ويعتقد بعد  
ذلك من أتباعه بأن رأيه حجة ، لاتقل عن حجة القرآن نفسه .

واما القسوة فقد صاحبت الاتجاه المقابل الذي لايجب حصر الامامة  
في بيت معين . بل تكون حيث يوجد خيار المسلمين ، فقها وتدينا وخدمة  
للاسلام والمسلمين .

فقد قسا أصحاب هذا الاتجاه في الحكم على أصحاب الاتجاه السابق ،  
حتى على أولئك منهم — وهم الكثرة الغالبة — الذين لم يصيروا الى  
نفس المصير الذي صارت اليه قلة منهم . وهم المسلمون : بغلاة الشيعة ،  
او بمتطرفي التشيع .

والقسوة في الحكم صورة عامة على أصحاب الاتجاه وفيهم المعتزلة ،  
أدت الى فجوة كبيرة في الجماعة الاسلامية بحيث أصبح العدااء بين  
الطرفين تقليدا ومذهبا .

وبذلك كاد الاسلام ينقسم الى قسمين ، أو الى « دينين » :

دين « السنة »

ودين « الشيعة » .

والسنة هم اعداء الشيعة .

والشيعة هم اعداء السنة .

وهذا غلو من الطرفين : فليس أهل السنة هم أرباب مذهب معين ،  
بل هم أهل « الحق » . والحق ليس دائما في طرف . وبذلك ، قد يكون  
الشيعة من أهل السنة على هذا الأساس . كما قد يكون من يعرف بالسني  
تقليدا بعيدا عن الحق في غير موضع مما رأى .

يقول ابن قيم الجوزية في كتابه شفاء العليل (١) :

واهل السنة ، وحزب الرسول ، وعسكر الايمان لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء .. لا مع الأشاعرة ، أو الرافضة ، أو غيرها — بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه . فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه ، وهم براء من باطلهم .

فمذهبهم ( أى مذهب اهل السنة ) جمع « حق » الطوائف ، بعضه الى بعض ، والقول به ، ونصره وموالاته أهله من ذلك الوجه . ونفى باطل كل طائفة من الطوائف ، وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه .

فهم حكام بين الطوائف . ولا يقابلون بدعة ببدعة . ولا يردون باطلا بباطل . ولا يحلهم شتان قوم على ألا يعدلوا فيهم . بل يقولون فيهم الحق ، ويحكمون في مثالاتهم بالعدل والله سبحانه أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف ، فقال :

**« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » (٢) .**

ان الخلاف حول الامامة أو حول نظام الحكم والرياسة في الدولة نشأ شخصيا وارتبط في أذهان المتخاصمين والمختلفين بشخص معين أو أشخاص معينين . وانتهى أمره الى الامعان في الارتباط بالشخص .

فشخص الخليفة قبل « على » كان محل خلاف في التقدير والأحقية . و « على » وسلسلته في النسب كانت محل خلاف في التقدير والأحقية .

... بينما الاسلام تركزت رسالته الأولى في دفع المؤمنين به نحو تجاوز الأشخاص الى المبادئ والسمو بهم من النظرة الى الكائنات المحسوسة الى النظرة الى الله وحده ، الذى « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٣) .

(٢) الشورى : ١٥

(١) طبع الخانجي ص ٥١

(٣) الأنعام : ١٠٣

ان هذا الخلاف وما انتهى اليه كاد أن يرجع المسلمين الى عهد الوثنية التي حاربها الاسلام أشد محاربة . والوثنية من شأنها أن تفرق بين عابدى الوثن . لأنه غير محدود ، وغير محصور ، بل مايؤله الوثنيون كثير متعددا بالشخص وبالمكان .

فمسير هذا الخلاف ،

وكذلك ما انتهى اليه أمر الفقه الاسلامى من عصبية ومقوتة ، وانصراف عن مصدر الاسلام نفسه وهو القرآن الكريم ،

وتركيز التقدير والتقدیس للمؤلفين وللمؤلفات دون المبادئ والتعاليم القدسية كما احتواها كتاب الله ،

ثم ما اتى به الفكر الفلسفى من تعقيد فى العتيدة ،

ربما أتت به الصوفية المتأخرة من تحريف وتحويل الاسلام الى مسيحية بوذية ،

... كل هذا ، فضلا عن أنه فرق المسلمين الى شيع واحزاب ، وندوات ومجالس ، آل بالاسلام الى نحو لم تأت به الرسالة الالهية ، وحول غايته الى غاية اخرى .

فبعد ان كانت غايته :

جمع الكلمة وقوة المؤمنين ،

ودفع السير قدما فى الحياة ،

... أصبحت غايته : ما آل اليه :

من تفريق الكلمة وضعف المؤمنين به ،

ودفع الى الركود والاستذلال والاستجداء من أجل العيش فى الحياة ، وأصبحت رسالة المسلمين : أن يعيشوا على أى وضع ، بدل ان كانت رسالتهم جهادا فى سبيل الله ، وهو سبيل الحق وخير الانسانية :

وبهذا المصير تمهد الجو لظهور فترة اخرى من غترات التفكير الاسلامى .

ولابد أن تكون فترة مغابرة للفترة الماضية :

في طابعها ،

وبواعثها ،

وغايتها .

وعلى أثر هذا نشأت فترة التفكير لاعادة بناء المجتمع الاسلامى ، وردم الى وحدته وقوته .

\* \* \*